

## ماذا يعني أن أكون باحثة؟

هدى ملحم

سمعت كثيراً أن فلاناً باحثاً، وكنت أريد أن أعرف ماذا تعني هذه الكلمة؟ ما هي مقومات أن تكون باحثة؟ هل أستطيع أن أكون باحثة مثل هؤلاء الأشخاص الباحثين؟

ولكن خوفي يمكن أن يكون أقل من زملائي الباحثين بقليل، وذلك لأنه تم اختيار مدرسة كنت أعمل فيها معلمة «لتعليم الكبار»، ولدي معرفة سابقة ببعض المعلمين الذين يعملون فيها، ولكن هذه السنة تغير أهم شخص من وجهة نظري في المدرسة، وهو مدير المدرسة، لم يسبق أن تعاملت معه، وبالتالي علي أن أختار الطريقة والأسلوب الذي أقنع به المدير للسماح لي بالموافقة على العمل وإجراء البحث داخل هذه المدرسة. على الفور أخذت كتاب التكليف، وكان أيضاً قد وصل كتاب إلى مدير المدرسة يسمح لي بدخولي المدرسة، ولكنني أريد العمل بحرية وطمأنينة.

وقد توجهت إلى المدير لقناعتي أنه هو بوابة دخولي إلى المدرسة، وأنه سوف يسهل عليّ مهمتي، ويساعدني في إقناع المعلمين بعملتي. بدأ المدير يطرح أسئلة عليّ: من المسؤول عنك في هذا البحث؟ كيف وافقت الوزارة على مثل هذا البحث؟ لماذا اخترت مدرستي أنا وليس أي مدرسة أخرى؟

### ■ بداية المشوار

تعاون معي المدير وأطلع المعلمين على الموضوع، فمنهم من عارض أن أحضر عنده أي حصة، ومنهم من تقبل الموضوع، ومنهم قبل أن أحضر حصة ورفض أن أعمل معه مقابلة، أو أن أقم بتعبئة استبانة

إلى أن جاءتني الفرصة التي انتظرتها ولم أتردد لحظة في قبولها، وذلك لأنني بطبيعتي أحب المغامرة، ولا أحب العمل الروتيني، ولكن لا أخفيكم أنه انتابني مشاعر من القلق والخوف في مقابل مشاعر الفرح؛ الخوف والقلق من أشياء عدة، بدأت أسأل نفسي: هل سأنجح في هذا العمل؟ هل سأقوم بالدور على أكمل وجه؟ أأدّي القدرة على إقناع المعلمين وأنا معلمة مثلهم بحضوري حصصهم، وأنا أعرف بداخلي أن المعلم ينتظر المشرف لكي يحضر عنده، ويكتب هذا التقرير وينتهي منه؟ كل هذه الأسئلة وغيرها أخذت تجول في فكري، كيف؟ وكيف؟ وكيف؟

أخذت أنتظر بفارغ الصبر الإذن (الكتاب الرسمي) الذي يسمح بدخولي إلى المدرسة (مدرسة البحث)، لكي أبدأ بتنفيذ البحث، وأخذت الأفكار تتلاطم داخلي، هل ستوافق الوزارة على مثل هذا البحث، الذي حسب التوقعات سيكشف أشياء يمكن أن ترضى عنها وأشياء لا؟ لأنني للحظات توقعت الرفض، وأصبحت أحدث نفسي أن الوزارة سترفض، لا محال، لأنها بالتأكيد لا تريد فتح أبواب من النقاش هي في غنى عن فتحها، والدخول في نقاشات في مواضيع لا يرغبون في نقاشها مثل المنهاج، والمعلمين، والامتحانات. وبعد انتظار غير طويل، جاء كتاب الموافقة، وما إن تسلمت الكتاب حتى غمرتني مشاعر من الفرح، والسعادة، والانتصار، وبالمقابل الخوف؛ الخوف الآن إلى أين سأنتج؟ ومن أين سأبدأ؟ وما هي الخطوة التي أقوم بها؟

العلاقات، وكنت على يقين أن أهم شيء هي الثقة بيني وبين هؤلاء المعلمين.

في اللحظة التي بدأت فيها بتنفيذ البحث، بدأت أشعر أن المسؤولية زادت علي، كيف أحافظ على سرية البحث؟ خصوصية كل معلم؟ المعلومات التي أحصل عليها؟ كيف سأعمل على تحقيق توقعات المعلمين من هذا البحث على الرغم من إدراكي لحدود البحث؟ لكن في الوقت نفسه، أعرف طموح المعلمين في أن يوصلوا صوتهم إلى الجهات العليا، لإحداث نوع من التغيير... وبصراحة كنت دائماً في جدال بين هذين الموقعين، لا أعرف ماذا سيؤول عنه البحث؟

## ■ تجربتي البحثية

في الأسبوع التالي وفي اليوم المحدد لي بدخول المدرسة، ذهبت أحمل معي دفتر ملاحظاتي، ومسجل صغير، وكاميرا تصوير صغيرة. دخلت أثناء الاستراحة إلى المدرسة، وكان لا بد لي من أن ألاحظ كل ما يجري فيها، وأدون ملاحظاتي عن الطلاب، والمدرسة، والمعلمين، والمدير، والمراسل....

دخلت غرفة الإدارة، رحب بي المدير وطلب المعلم الذي اتفقت معه، ووضحت له أنني فقط أشاهد دون أي تعليق مني، أو أي كلمة، وبدأ المعلمون بالقاء بعض الفكاهات والكلمات: «شو يا بطل، أنت كبش الفدا اليوم»....

طبعاً، الشيء الطبيعي أن يستغرب الطلاب حضوري عندهم، فبدأوا يتهايمسون ويضحكون، ثم بدأت الحصة وكنت أحرص دائماً على جلوسي (آخر الصف) حتى يمكن مشاهدة المعلم والسبورة والطلاب وأدون ملاحظاتي بحرية، ولم تفوتني صغيرة ولا كبيرة إلا وكتبتها، وما أن انتهت الحصة حتى خرجت وشكرت المعلم، ولكنه بادرني بالسؤال: كيف الحصة؟ إن شاء الله أعجبتك؟ شو تعليقك؟ أجبت: أنني أشاهد فقط وليس لدي أي ملاحظات ولا أكتب أي تقرير.

## ■ صور هنا وهناك

وهكذا بدأت أشاهد حصة تلو الأخرى، وأذهب كل يوم أربعاء إلى المدرسة مع بداية الاستراحة، وما لفت انتباهي أن هناك مجموعة من الطلاب والمعلمين يشكلون فرقاً من الألعاب المختلفة، فهنا ملعب كرة طائرة، فريق مشكل من المعلمين والطلاب، وهناك فريق كرة سلة... والملاعب السفلي لكرة القدم، وباقي الطلاب منهم من يلعب، ومنهم من يأكل، ومنهم من يلتف حول هذه الملاعب ليشتجع اللاعبين، والمعلمون المناوبون على مداخل المدرسة لحفظ النظام ومنع حدوث أي شيء خلال الاستراحة إلى أن يقرع الجرس، فيبدأ

الطلاب بالصراخ لا يريدون الدخول، ولكن هكذا هو النظام، فيبدأ كل طالب بالوقوف في صفه، وكل معلم يقف أمام الصف الذي سيعطي حصته فيه، وتبدأ الحصص الدراسية إلى أن ينتهي الدوام، ولكن خلال حضوري الحصة الرابعة بعد مشاهدات عدة، رأيت المدير يحمل دفتر الحضور والغياب، ويسجل عدد الطلاب الغائبين مرة بعد مرة، إلى أن قلت له يوماً نحن في مدرستنا تأخذ السكرتيرة الحضور والغياب بعد الحصة الأولى، فلماذا انتم في المدرسة تأخذون الحضور والغياب الآن؟ أجابني: نحن تأخذ الحضور والغياب مرتين يومياً بعد الحصة الأولى وبعد الحصة الرابعة. سألته: لماذا؟ قال لي: لأنني جئت إلى هذه المدرسة ووجدت أن عدد الغياب كثير، وبخاصة بعد الاستراحة، وهذا جعل عدد الطلاب في الصف يقلص من 50 طالباً تقريباً إلى (8-10) طلاب، ولا يحق للطلاب الغياب إلا بعدر مقبول، كأن يكون مريضاً أو يتصل ولي أمر الطالب ليطلب الإذن لابنه بالغياب.

ومن الصور المشرفة في هذه المدرسة جهم لبعض البعض، علاقاتهم فيما بينهم وبين مدير المدرسة، انتماءهم لمهنتهم على الرغم من الصعوبات التي تواجههم حسب رأيهم. وبعد ذلك أجريت مقابلاتي معهم، وتناولت قضايا عدة كالراتب، والمنهاج، وعدم رغبة الطلاب في التعلم، وعدم توفر الأمن الوظيفي كما قال المشرف التربوي، والامتحانات الوزارية والمديرية المفاجئة، حسب ما قال المدير والمعلمون، وغيرها من الأشياء.



من الأنشطة التي تم تنفيذها في إطار بحث «صنع المعاني في المدارس الفلسطينية».

ومع كل هذا، فإن المعلمين يعتبرون مهنة التعليم أمانة، يجب أن يعملوا من أجل المحافظة عليها، والغريب أنني عندما سألتهم: هل ترغبون أو تطمحون بتغيير المهنة عندما تسمح لكم الظروف بذلك، فوجئت بالإجابة التي كانت: لا. ومع كل هذه المعينات، إلا أنهم يعملون كجسد واحد؛ سواء للعملية التعليمية أو النشاطات اللامنهجية التي تبدأ المدرسة بالتحضير لها، وإبراز الأنشطة كافة لدى الطلاب في يوم يسمى «اليوم المفتوح»، حيث تحاول كل مدرسة أن يكون هناك يوم مميز لها الكل يتحدث عنه، ولكن في هذه المدرسة كان هذا اليوم بالفعل مميزاً، وذلك من خلال شهادة أولياء الأمور والأمهات الذين حضروا الحفل، وسألتهم لماذا تعتبرونه يوماً مميزاً؟ قالوا: «منذ سنوات عديدة لم يكن يوم مثل هذا اليوم في المدرسة»، وهذا ما كنت ألاحظه أنا، حيث نبدأ نحن الحفل وطلاب هذه المدرسة يكونون في ملاعب المدارس الأخرى، لأنه لا يوجد شيء لعرضه بسبب إهمال مدير المدرسة السابق لمثل هذه الأنشطة. وقد حصلت على الصور كاملة لهذه الأنشطة. كما شاركت المدرسة في أنشطة ومسابقات عدة على مستوى المديرية والوزارة، وفازت بمراكز عدة، وهذا ما شجع الطلاب والمعلمين على المضي قدماً والعطاء أكثر.

### ■ إحصائي بالمعلم

كوني معلمة كنت أشعر بمدى الصبر الذي يتحلى به المعلم بضبط أعصابه، وذلك بسبب وجودي داخل غرفة الصف، ولكن تنتهي الحصّة وتنتهي مشاهداتي وأخرج من كل مشاهدة، وتطرح عليّ أسئلة عدة من قبل المعلم: كيف كانت الحصّة؟ ما رأيك بالطلاب؟ ما هي ملاحظتك؟ كونك مشتركة معي، كيف تقيمين حصتي؟ كيف شفّيتي الطلاب؟ شاطرين؟ كنت أرد بالإجابة عن الأسئلة: إنني معلمة باحثة لا أضع تقييماً لأحد منكم، ولكن من أجل أن لا يتغير شيء في نهاية بحثي هذا ولو بسيط كنت لا أجيّب عن مثل هذه التساؤلات. ففي إحدى اللقاءات البحثية تحدثنا عن ذلك، وتبادلنا قضايا مختلفة من هذا القبيل، وكلنا واعون بتأثير وجودنا كباحثين على مجريات الأمور داخل الصف والمدرسة، حيث نرى الأمور من داخلها ونفهمها جيداً من خلال تجربتنا كمعلمين أكثر من أي باحث خارجي يدخل إلى المدرسة فقط لإجراء بحث ما ويخرج.

وكنا كفريق بحث نعمل من خلال دخولنا مدرسة البحث على استكشاف الممارسات التعليمية من زاوية المعلم، حيث كنت أريد استكشاف أسلوب المعلم، علاقته مع طلابه، مدى تفاعله مع المنهاج والامتحانات، بالإضافة إلى التحديات التي يواجهها المعلم والطلاب في الصف. ولكن يبقى السؤال: ما هي المرجعية للحكم على مثل هذه الأمور؟ المرجعية أولاً وأخيراً معرفتي السابقة، والنظرية التي أحملها عن التعليم والتي تطورت عبر هذا البحث، حيث أرى أن عملية التعليم عملية معقدة، ومتشابكة، ولكل واحد منا لديه القناعة التي يرى أنها الأفضل لسير العملية التعليمية، ولكن كمعلمة باحثة

أرى أن المعلم الجيد هو الذي يحث الطالب على التفكير والنقاش والجدال، وعدم الأخذ بالأمور والمعلومات على أنها مسلم بها، والطالب الجيد هو الطالب الذي يفكر ويبحث كي يصل إلى النتيجة بنفسه، ويحصل على المعلومة من مصادر عدة، والمنهاج المناسب هو المنهاج الذي يناسب عمر الطالب، وإمكانيات المعلم وقدراته، حتى لا يشعر كل منهما بالإحباط أو التخط. وبناءً على ذلك، استطعت من خلال بحثي ومعرفتي السابقة أن أصنف المعلمين على الرغم من كون التصنيف فيه حكم وهو أمر خطير في هذا العصر، لكن حتى أسهل عملية فهمي للامور، ربما قد أكون نجحت في ذلك، فهناك معلمون «يتبعون الكتاب قلباً وقالباً، ولا يعطون الفرصة للطلاب للبحث والاستكشاف، مقابل معلمين أعطوا فرصة للتفكير والنقاش والإبداع، ولكن من وجهة نظري، وبعد الانتهاء من بحثي هذا، أرى أن الأمور معقدة، فالمعلم الذي ربما رأيتته تقليدياً في حصة ما، يمكن أن يكون في لحظة ما معلماً جيداً ومبدعاً إذا ما أُوتيت له فرصة الإبداع، فأنا على يقين أن الأمور ليست «بيض / أسود». الخطر من التصنيف أنني سأقع في الخطأ الذي وقع فيه الموجهون «المشرفون التربويون»، حيث قال لي المشرف الذي قابلته: «إننا محكومون بقوانين وأنظمة يجب في النهاية أن نسير عليها جميعاً، سواء أكننا راضين عنها أم لا؟».

من خلال بحثي ومقابلاتي ومشاهداتي، توصلت إلى أن المعلمين والمدير، والمشرف، وأولياء الأمور والطلاب غير راضين عن المنهاج، حيث أجمع الكل على أنها «منهاج طويلة، مكتظة، أعلى من مستوى الطلاب»، والامتحانات -على رأي المدير- «مفاجئة، ولا يتم تهيئة الطالب والمعلم لها مسبقاً، مما يؤثر سلباً على الطلاب، حيث يقوم المعلم بإنهاء المنهاج على حساب فهم الطالب، وحتى يحصل على تقرير جيد من المشرف في نهاية المطاف». وحسب ما قال ولي الأمر: إنها تكون حالة من الطوارئ داخل المنزل عندما يقال: «امتحان وزاري»، والغريب بعد كل النتائج المتدنية التي يحصل عليها الطلاب في هذه الامتحانات، إلا أن الوزارة ماضية قدماً في تطبيقها لها دون التفكير بجوهر الأسباب.

خرجت بأسئلة كثيرة في نهاية البحث، تغيرت لدي مفاهيم عن دور الباحث، حصلت على معلومات لم أكن أحصل عليها لو بقيت معلمة فقط، بدأت أنظر إلى مهنة التعليم على أنها عملية بحثية من قبل المعلم والطالب نتيجة تفاعلها مع البيئة، يتفاوضان في الأدوار لكي يبنيا المعاني لوجودهما. إن اللقاءات البحثية مع فريق البحث قبل العملية البحثية وأثناءها وبعدها، ولد لدي طريقة تفكير جديدة، وأسلوباً للحوار والتأويل ساعداني على فهم مهنتي وممارساتي اليومية، وفي الوقت نفسه طرحاً أسئلة أكبر بحاجة إلى عملية بحثية مستمرة.

هدى ملحم

معلمة في مدرسة اليرموك الأساسية - الخليل